لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الرابعة ـ العدد السابع (رجب ـ ذى الحجة ١٤٤٤)

قراءة حديثة في مغفرة الذنب في سورة الفتح؛ بناءً على حديث «تحميل النبي صلى الله عليه وآله ذنوب الشيعة»

الدكتورة مريم حكمت نيا[1]

الملخّص: أحد البحوث التفسيرية الجديرة بالتحليل، التحقيق في آيات القرآن الكريم الخاصّة بمفهوم الذنب في الآية الثانية من سورة الفتح المباركة. فالآية المشار إليها ـ في النظرة الأولى ـ تتعارض وعقيدة عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد اجتذبت إليها أنظار المفسّرين، فصار كلّ منهم ـ حسب عقيدته ـ يدوّن مطالب بهذا الصدد. وهذه الدراسة جرى فيها السعي إلى نقل الأحاديث عن الأئمة الاطهار عليهم السلام الخاصة بمفهوم ذنب النبيّ الأعظم، و مدى ردّها أو قبولها من قِبل المحقّقين وطبيعة القراءة الحديثة لهذا الأمر، اعتماداً على الاستدلال الأدبي والروائي والعقلي والفطري بغرض الوصول إلى النتيجة المقبولة..

المصطلحات الرئيسيّة: الذنب، سورة الفتح، النبي، التفسير، العصمة، تحميل النبي ذنوب الشيعة.

١. أستاذ مساعد جامعة قم

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

المقدمة

القرآن المجيد، ورغم ما يتّصف به من الوضوح والشفافية والبساطة واليسر والنأي عن الإبهام، وبداعي السعة اللامتناهية وعمق المطالب وآفاقه الفائقة على البعد البشري من جهة، ونسبية فهمها من قِبل الناس، واختلاف مستويات التلقّي والفهم من جهة أُخرى، فإنه كتاب حوت آياته المباركه تساؤلات لاتنتهي، ولعل الإجابة عنها خارجة عن طاقة أكثر الناس، ناهيك عن أنّ هذا الأمر يجسّد إحدى الحكم الإلهية غير المتناهية.. وذلك لكي يصقل الناس أذهانهم ويندفع قراء القرآن إلى مزيد التفكير في غاياته ومعانيه ويغوصوا في أعماقه، فينتفعوا من حقائقه الأصيلة، فيأخذ كل فرد من الأفراد من منافعه بمستوى علمه ومعرفته، ويتوصّل ـ ما وسعه ـ إلى الحكم الإلهية الفذّة؛ فيدرك دين الله أكثر وأكثر...

وإنّ أحد البحوث التراثية الحاصلة بين المحقّقين ومفسّري القرآن والتي كانت محطّ الملاحظة والنقد... ما تضمّنته الآيات الأولى من سورة الفتح المباركة وكانت بمثابة كنز متعدد الأسئلة والاستفهامات...

والسؤال محطّ اهتمام هذه الدراسة هو: ذنب النبيّ الأكرم ﷺ الذي يذهب الشيعة إلى عصمته وطهارته المطلقة... ظاهر قوله تعالى:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) [الفتح/ ٢] يصرّح بذنبه صلوات الله عليه و آله... وهذا ما أدّى إلى حصول التفاوت والاختلاف بين التفاسير، بما في ذلك تفاسير الشيعة رغم اعتقادهم بالعصمة النبوية... ولعلّنا سنعرض بعضاً منها إلى النقد في هذه الدراسة. وإنّ ثمّ دراسات وضعت بصدد الإجابة عن هذا التساؤل، ومنها دراسة تحت عنوان «تحقيق ونقد منظار القاموس القرآني في معنى (الذنب) المنسوب إلى النبي ﷺ في القرآن المجيد» تأليف السيد محمود طيب الحسيني ومطهرة السادات الطيب الحسيني. إذ عمد مؤلّفان هذه الدراسة إلى التحقيق في ما يسمى بذنب الرسول، مع استعراض لرأي السيد على أكبر القريشى صاحب كتاب (قاموس القرآن) و (تفسير أحسن الحديث) بشكل دقيق وحديث مضافاً

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

اِلى تقييم آرائه، إذ قال في تبيين قضية الذنب النبوي: «ثمّ تصورات متّصلة بتأخير النصر الإلهي، حيث خطر على ذهن النبي بشكل لاإرادي تبعاً للحالة البشرية»

وعدّ الكاتبان ـ عبر التحقيق في رأي العلّامة الطباطبائي ـ نظرته غير مسبوقة، وقال: برأي العلّامة، يكون المقصود المتقدم للنبي: صراعه مع المشركين وعبادة الأصنام في مكة وقبل الهجرة بالتبع. والمراد بالذنب النبوي المتأخر: مواصلة إبلاغ الرسالة النبوية والأضرار اللاحقة بالمشركين في المدينة المنورة وما بعد الهجرة الشريفة، والدماء المراقة في الحروب المختلفة للمشركين وصناديد قريش. (تحقيقات كلامي، ربيع ١٣٩٧ ش، رقم ٢٠ ص ١٠١-١١٦).

الدراسة الأخرى: «تحقيق تطبيقي للآية الثانية من سورة الفتح من منظار مفسري الفريقين» تأليف: محمد بشير المقدسي و حسين علوي مهر. وقد عمد مؤلّفا هذه الدراسة اِلى التحقيق في آراء مفسّري الفريقين فى ما يرتبط بمعنى الذنب. واستنتجوا أنّ مصطلح (الذنب) الوارد في الآية الثانية من سورة الفتح بمعنى ذنب النبي في نظر المشركين، وليس بمعنى الذنب الشرعي الذي يستوجب العقاب الإلهي (مطالعات تطبيقي قرآن وحديث، ربيع وصيف سنة ١٣٩٨ ش، رقم ١٢ ص ٢٥-٤٨).

وليس واحدة من هذه الدراسات والمقالات الشبيهة في تفسير الذنب اَشارت اِلى ذنب الامة، ولم تسلط على ذلك أضواء التحقيق والدراسة، ومن هنا، فإنّ النتيجة التي نحصل عليها من هذه المقالة لم تحظَ بالتفاتهم واهتمامهم...

وبشكل عام، وبنظرة سطحية، إما أن نتجاهل عصمة النبي، ونرى في ارتكاب النبي للذنب اَمراً وارداً ومتوقّعاً... أو أن نتّخذ اِلى هذه الآيات الإلهية الصريحة منحىً تأويلياً... وهذا الخيار الثاني لا ينتهي اِلى التصديق والإيمان به ما لم يقترن اِلى الادلة النقلية والعقلية المتقنة. ولكن المؤلف يذهب اِلى أنه لدى تغيير النظرة والاستعانة بالقوانين البلاغية والسنن الفطرية، يتمّ الاقتراب واِلى حد كبير من الحقائق وادراك مقصود الآية الشريفة ومرادها.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

وبهذا الصدد؛ لابدّ من تقصّي مفهوم مفردة (الذنب)، ثم نتابع آراء العلماء ومفسّري الشيعة في هذا المفهوم، ثم لعلّنا بالاعتماد على القرآن والعترة وبالاستمداد من الحجة الباطنية (العقل السليم الرشيد) نتحصّل على النتيجة المرجوّة والمناسبة والجديرة بالبحث العلمي.

وحيث أنّ العصمة ـ في الفكر الشيعي ـ غير قابلة للخدش، وللشيعة في ذلك دلائل متقنة وقاطعة... فاننا نلج هذا البحث، ثم نذكّر بصورة إجماليّة بالآراء الخاصة في تبرير وتفسير (الذنب النبوي) من بين حنايا تفاسير الشيعة.

تحقيق مفهوم (ذنب النبي) الوارد في الآية الثانية من سورة الفتح

الشيعة؛ وطبقاً لمعتقداتهم ينفون عن النبي وأهل بيته صلوات الله عليه وعليهم إمكانيّة وقوع كلّ نوع من أنواع الذنب، وفضلاً عن الكبيرة والصغيرة وما يسمّى بترك الأولى... وذلك أنهم عليهم الصلاة والسلام مصدر ومعين الطهر والطهارة؛ بل إنّ جميع الطهارة والطهر ـ في جميع مناحي الوجود ـ تجري من وعن حياضهم ووجودهم ـ وإنّ لمسهم باعث على التطهّر... فكيف ينسب إلى الله عزّوجلّ غفران ما تقدّم وما تأخّر من ذنب في هذه السورة المباركة اِلى النبي صلوات الله عليه وآله؟ وياترى ما الغرض من غفران الذنب النبوي، لا سيّما وأنّ هذا الغفران مرتبط بشكل مباشر بالفتح المبين الذي ذكر في الآية السالفة على أنه العلة الأصلية في مغفرة الله للذنب النبوي؟!

للخروج والتخلص من هذا الإشكال، نلقي نظرة على المعنى اللغوي للذنب والمغفرة، ثم نمرّ على مختلف الآراء، ونعمد اِلى شرح و إيضاح كلّ منها للوصول اِلى النتيجة المعقولة.

المعنى اللّغوي للذنب والمغفرة

مفردة الذَنب وبالنظر اِلى العلاقة المعنوية مع ما يرتبط به من تبعة، فيكون الذنب كما هو الذَنَب، أي أنّ للذّنب عاقبة تتبع الإنسان مثلما يتبع الذّنَب جسم الحيوان، فالذّنب يشترك في تحديد مصير وعاقبة الاِنسان، ولا ريب أنّ كلّ عمل يقوم به الأنسان يكون له تأثير في حياته وعاقبته ـ شاءَ أم أبى ـ كما له دور في رسم ملامح شخصية

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

وصناعة مصيره. ومن هنا؛ عرّف الطباطبائي في (تفسير الميزان) الذّنب بأنّه كلّ عمل له عواقب غير حميدة؛ كما أُشير إلى ذلك في كتب اللغة. وعرّف ابن منظور الذّنب بأنّه الإثم والجُرم والمعصية (ابن منظور، ١٩٨٨، ص ٦٤). أمّا مصطلح (المغفرة) في اللغة، فهو بمعنى السّتر والحجب والتغطية للشيء (ابن منظور، ص ٩١).

وبالنظر إلى معنى الذنب والمغفرة يتّضح أنّ مغفرة وغفران الذنب هو التغطية عليه أو تجاهله بحيث تخفى عواقب هذا الذنب عن أنظار الآخرين.

تفسير (الذنب) في الأحاديث

الأحاديث الواردة في تفسير الآية الثانية من سورة الفتح حوت ثلاثة تفاسير للذنب عموماً، وهي عبارة عن:

١- ذنب النبي عن زاوية المشركين:

ورد في الحديث أنّ المأمون سأل الإمام الرضا عليه السلام عن ذنب النبي صلى الله عليه وآله المذكور في سورة الفتح؛ اذ قال له: يابن رسول الله! أليس من قولك أن الأنبياء عليهم السلام معصومون؟

قال: «بلى»

فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن... فأخبرني عن قول الله عزّوجلّ: (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر). قال الرضا عليه السلام:

«لم يكن أحد عند مشركي أهل مكّة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاث مائة وستين صنماً، فلمّا جاءهم صلى الله عليه وآله بالدعوة إلى كلمة الإخلاص؛ كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا: اجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب.. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد، ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ... فلمّا فتح الله عزوجل على نبيه صلى الله عليه وآله مكة قال له: يا محمد! انا فتحنا لك مكة فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي أهل مكّة بدعائك إلى توحيد الله فى ما تقدم وما تأخّر .. لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ومن بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

دعـا النـاس إليـه... فصـار ذنبـه عندهـم فـي ذلـك مغفـوراً بظهـوره عليهـم». (الطبرسـي، ١٤٠٣ ق: ٤٣٠).

إنّ بيان الإمام الرضا عليه السلام في هذه الرواية جدير بالالتفات من بُعدين:

أولاً: إشارة الامام بعبارة «بظهوره عليهم» تشير اِلى أنّ قدرة وغلبة النبي سبب في تغير موقف المشركين إزاءه، كما هو الأمر في المجتمعات القوميّة الصغيرة، أو المجتمعات القوميّة الكبيرة، وحتى العالمية؛ حيث تجتذب المجتمعات المغلوبة اِلى ثقافة المجتمعات والفتوحات العسكرية الغالبة وحضارتها حتى تخسر ثقافة المغلوب وتذوب في الثقافة الغالبة... وعليه، فاِنّ غلبة النبي بداعي الانتصار و الفتح، ولا سيّما فتح مكة، كانت عاملاً و سبباً مهمّاً في تغيير الوضع و الموقف والنظرة من قِبل المشركين إزاء ما كانوا يعتبرونه ذنباً وجريرة صورت من قِبل النبي صلى الله عليه وآله تجاههم.

ثانياً: يتأتّى من بيان الإمام الرضا عليه السلام أنّ الذنب عبارة عن أمر نسبيٍّ، وواضح أنّ ما يُعدُّ ذنباً عندالله تعالى، وما يعتبر ذنباً في منظار المجتمعات البشرية المختلفة شيئاً متفاوتاً...

وقد تقدم القول في مصطلح (الذنب) وهو أنه كلّ فعل يتضمّن عواقب غير مطلوبة، وذلك أن (المطلوبة) و(غير المطلوبة) تُتَصوّر بالتبع اِلى شاكلة وذائقة كلّ مجتمع على حدة، وكذا بناءً على العرف والنظرة والمنطق الخاص بكلّ بيئة اجتماعية عامة، فالذنب يمكن اَن اَمراً نسبيّاً.

فمثلاً؛ في حقبة النبي لوط عليه السلام كان الشذود الجنسي فعلاً مقبولاً من قبل مجتمعه، بل محبذاً، فى ما الطهر والتطّهر أمراً مكروهاً منفوراً.. ومن هنا؛ وجدنا قوم لوط الشاذّين الموبوئين يستهزؤون بهذا النبي الجليل وبأتباعه ويحقّرونهم ويجهدون في معادلات إخراجهم وطردهم عن قريتهم، ويقولون: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف / ٨٢] أو: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل/ ٥٦]

في حين أنّ هذا العمل يُعدّ ذنباً عظيماً من المنظار الالهي والنبوي، ومردُّه اِلى

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

الشهوة والجهالة والإسراف وتطرف قوم لوط... و القرآن المجيد يقول: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[الأعراف/ ٨٠-٨١].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل/ ٥٤-٥٥].

..بهذه النظرة والحيثية التي هي حيثية منطقية ومقبولة تماماً... كان ذنب النبي من وجهة نظرة أهل مكة والمشركين يُعدّ ذنباً هو الأكبر والأشنع.. ولا ريب أن ديانة التوحيد ونفي عبادة الأصنام في مجتمع كان يعبد (٣٦٠) صنماً؛ هو بمثابة ذنب عظيم جداً يمكن نسبته اِلى النبي ﷺ واتّهامه به ... ولذا؛ فقد قال القرآن المجيد: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص/ ٤-٥].

فقد كانوا يتعجّبون أنّ فرداً أتاهم لينهاهم عن عبادة الأوثان، فأعلنوا الحرب الشعواء عنده وصارعوه بلا رحمة ونسبوا إليه الموبقات من الصفات، مثل الافتراء على السماء والشعر الكاذب والكهانة والسحر...

فلمّا فتحت مكة المكرّمة وتمكّن النبي ﷺ منها ومن أهلها وغلبت قوته عليهم وكفّوا عن مواجهتهم ـ العلنية على الأقل ـ ضده وسلّموا له، رأيتهم يتجاهلون ويتناسون الذنب الذي كانوا نسبوه إليه .. وصارت الدعوة اِلى التوحيد التي كانت في زعم المشركين ذنباً وجُرماً؛ أمراً يمكن أن يُتجاهل وتُطوى صفحته.. وقد تسبب ذلك في أن يعمد بعض أهل مكّة اِلى الخروج منها وتركها، فيما الآخرون مالوا إلى دين الإسلام طوعاً أو خوفاً وكرهاً...

وعلى هذا النحو؛ فقد تركت الغلبة العسكرية والسياسية وحيازة القدرة تأثيرها في المشركين الذين لم يكونوا ليقبلوا الإسلام؛ حتى تركوا مكة أو لم يقبلوا الإسلام طوعاً ورغبة. ولكنهم أسلموا ـ اعلنوا إسلامهم ـ مضطرّين... ولكن غلبة التوحيد الثقافية على ثقافة الشرك وتغيّر نظرة المشركين إلى الاسلام والرسول قد ترك أثره في وجود الذين أسلموا

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

عن ميل ورغبة واطّلاع؛ حتى آمنوا بالنبيّ عن علم، بعد أن تغيّرت نظرتهم إزاءه. فهم لم يكتفوا بعدم تلقي الدعوة المحمدية ذنباً، بل عدّوها أمراً مطلوباً.. وفي الآيات المشار إليها آنفاً؛ ومع سبر أغوارها نجد أنها تناولت ثلاث فرق بالاسم والوصف، وهي: المؤمنون والمنافقون والمشركون..

وهذا كان تفسير الإمام الرضا عليه السلام لهذه الآية.. وبقبول هذه الرواية.. وفضلاً عن تفسير مصطلح (الذنب) يكون قد أُزيح الإشكال المتعلّق بـ (الفتح المبين) وبين (الذنب).

٢- غفران ذنوب شيعة النبي صلى الله عليه وآله وشيعة اميرالمؤمنين عليه السلام

ما سيخضع للتحقيق في هذه الدراسة بشكل جاد، هو كيفية احتساب ذنوب شيعة النبي صلى الله عليه وآله أو شيعة علي عليه السلام على النبي الأكرم.

ورد في الرواية أن عمر بن يزيد سأل مولانا الإمام الصادق عليه السلام عن هذا الذنب.

قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عزوجل: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)؟

قال: «ما كان له ذنب ولا همَّ بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته ثم غفرها له» (المجلسي، ١٩٨٣م.: ٧٦؛ الطبرسي، ١٤٠٦ ق.: ١٦٨).

ورواية أخرى تبين بالقول: سُئل أبو الحسن الثالث ـ الإمام علي الهادي عليه السلام ـ عن قول الله عزّوجلّ: (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر)، فقال: «وأيّ ذنب كان لرسول الله صلى الله عليه وآله متقدّماً أو متأخّراً؟ وإنّما حمّله الله ذنوب شيعة علي عليه السلام ممّن مضى منهم وبقي؛ ثمّ غفرها له». (المجلسي، ١٩٨٣م.: ٢٧٢)

وهاتان الروايتان كأنها تتحدّثان عن غفران شيعة النبي أو شيعة اَ مير المؤمنين عليهما وآلهما الصلاة والسلام.

بادئ ذي بدء تبدو الروايتان ـ أو مؤدّى الروايتين ـ عجيبتين وغير مقبولتين ـ وذلك أنّ بعض مفسّري الشيعة كانوا يجتنبون اِيرادهما، فيما البعض منهم إذا ما أوردوهما كانوا

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

يتجنّبون شرحهما والتعليق عليهما.. و البعض الآخر ذهبوا اِلى أنّ الذنب المتقدم هو ذنب الأمة، والذنب المتأخر ما يغفر في إطار الشفاعة النبوية.

فالطبرسي في (مجمع البيان) ولدى تبرير مغفرة الذنب النبوي تحدّث عن (ذنب الأمة) وقال: «ولاصحابنا فيه وجهان من التأويل: أحدهما: أن المراد: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر بشفاعتك... وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال والسبب بينه وبين أُمّته» (الطبرسى ١٤٠٦ ق.: ١٦٨)، ثم أورد الروايتين أعلاه باعتبارهما تتناولان مغفرة شيعة النبي وعلي عليهما وآلهما السلام.

والعلّامة الطباطبائي اكتفى بهذا المقدار أيضاً وكرّر ذكر الوجه الذي أورده الطبرسي وقال: «من ذلك: ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أنّ المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، مغفرة ما تقدم من ذنوب أُمته وما تأخر منها بشفاعته صلى الله عليه وآله. ولا ضيرَ في إضافة ذنوب أُمته صلى الله عليه وآله اِليه؛ للاتّصال والسبب بينه وبين أمته» (الطباطبائي ١٩٧٣ م.: ٢٥٦)

وهكذا يكون هذان العلمان قد رضيا مغفرة ذنوب الأمّة من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ووجود الاتّصال والعلاقة بينه وبين أُمته، وقبلا التفسير هذا كونه دليل جوازه.. رغم أنّ الطباطبائي ـ لدى هذا القول ـ لم يجد ثمّ علاقة تربط بين الفتح ومغفرة الذنب.. وواصل يقول: اِنّ هذا الحديث يحلّ الكثير من المشكلات، ولكن يبقى الإشكال في وجود العلاقة بين الفتح و مغفرة الذنوب. (الطباطبائي ١٩٧٣ م.: ٢٥٦)

وما يقوي الإشكال هو أنّ المغفرة ليست مجرد مغفرة ذنب شخص النبي، ليتمّ التصرف كما القول السالف في معنى الذنب واعتبار الذنب من نوع آخر، واِنما الأمر تعدى المغفرة ليصل اِلى مسألة (التحميل).. فكيف يتسنّى لله تعالى أن يجعل ذنوب جماعات في ذمة وعنق رسول الله صلى الله عليه وآله ثم يغفرها؟ في حين أن القرآن المجيد يقول مصرّحاً: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم/ ٣٨] فكيف يتحمل النبي صلى الله عليه وآله ذنوب أمّته أو ذنوب شيعة علي عليه السلام ؟ أو كيف يحمّله الله تعالى إيّاها؟!

لقد شكّك محمد حسين فضل الله ـ من بين مفسرين الشيعة ـ في صحة هذه الرواية،

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

ثم ردّها قائلاً: «ولكنّنا لا نعتقد صحة هذه الروايات، لأنها لا تنسجم مع الأسس الفكرية الإسلامية، فإنه لا معنى للقول بما جاء في بعض هذه الروايات... لأنه لا معنى لتحميله تلك الذنوب، كما لا معنى لاعتبار الفتح أساساً لذلك، في الوقت الذي لم يكن فيه للشيعة أي وجود واقعي في المجتمع الإسلامي، وكيف يمكن للقرآن أن يتحدّث عن نتيجة للفتح لا تتصل به»؟ (فضل الله، ١٩٩٨ م.: ٩٨)

اِن الإشكالات التي أوردها محمد حسين فضل الله على هذه الروايات يمكن تلخيصها بأربعة أمور:

* عدم تناسب الرواية مع أسس الفكر الإسلامي.
* عدم وجود معنىً لمسألة تحميل النبي ذنوب الشيعة.
* عدم وجود العلاقة بين الفتح والمغفرة.
* فقد موجودية الشيعة في المجتمع المسلم حين نزول الآية...

وهذه مطالب تفصح وتفضح طبيعة رؤية محمد حسين فضل الله إزاء المباني والأسس الدينية. وهذا ما يميّزه عن المفسرين الآخرين. وذلك أنه رؤية الطبرسي والطباطبائي والعديد من مفسري الشيعة لم تتضمّن الحديث عن التعارض بين هذه الروايات وبين المباني الدينية... وكما سلف، لم يستبعده واحد منهم، وكذا لم يورد واحد منهم إشكالاً بداعي الاتصال والسبب بين النبي و الأمّة.

لقد اعتبر فضل الله هذه الروايات وأمثالها نوع تهرّب من المعنى الظاهري للقرآن، المُشعِر بوجود وحصول وصدور الذنب من النبي المعصوم! وهو نفسه اضطرّ للهروب من الظاهر القرآني اِلى إيجاد معنى للمغفرة في الرحمة والرضوان والمحبة لشخص النبي ﷺ باعتبار ذلك من نتائج المغفرة وتبعاً للجهاد النبوي المتواصل، مضافاً اِلى فتح أبواب العيش للنبي..

وما ينبغي قوله هنا؛ أنّه مع وجود (الذنب) الطبيعي وتصريح الله به، لا يمكن تقبل هذا المعنى، ولو أنه تعالى ذكر المغفرة على سبيل الإطلاق ومن دون تحديد المفعول، لأمكن قبول معنى الرحمة والرضوان والمحبة اِلى حدّ ما، ولكن مع التصريح بمفعول (الذنب)

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

لا سبيل إلى القول بصحّة هذا المعنى...

وللتخلّص من هذا الإشكال ينبغي ـ أوّلاً ـ هو معرفة مَن هم الشيعة؟ فمَن هُم شيعة النبي صلى الله عليه وآله؟ ومَن هم شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام؟ وهل أنّ شيعة علي غير شيعة النبي؟ بل ومن هم أمّة محمد صلى الله عليه وآله أساساً؟!

نبدأ بتعريف أُمّة النبي، ثم نواصل القول في الشيعة، ليتّضح ما إذا كان بالإمكان تحميل النبي ذنوب الأُمة أو الشيعة أم لا؟!

تعريف أُمّة النبي صلى الله عليه وآله

لا ريب في أنّ المراد من أُمّة النبي ليس جميع الأفراد الذين ينطقون بالشهادتين ويعلنون إسلامهم، لأن صريح القرآن العظيم قد فصّل وفرّق بين الإسلام والإيمان، وجعل دائرة الإيمان أضيق من دائرة الاسلام: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات/ ١٤].

ثم أضاف القرآن الكريم القول في تعريف المؤمنين فصرّح: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات/ ١٥].

ثم إن القرآن المجيد اعترض على مدّعي الإيمان وقال لهم: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات/ ١٦].

وقال في وصف هذه الشاكلة من الناس: ﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ [الحجرات/ ١٧].

في هذه الآيات؛ فضح الله عزوجل جميع أعياء الإسلام، ولم يعدّ الإنسان مؤمناً إلا بعد نفوذ الإيمان إلى قلبه واستقرار فيه، وبعد إطاعته لله واتّباعه للنبي اتباع التسليم.. وأخيراً؛ صرّح سبحانه وتعالى في الاية (١٤) بكونه الغفور الرحيم، وأنّ هذا الغفران والرحمة الخاصّة سيشملان هؤلاء المرضيّي الإيمان..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

وفي الآية (١٥) عرّف هؤلاء المؤمنين المرضيّين الصادقين بجملة أوصاف وحصرها فيهم بقوله الكريم (إنّما). والأوصاف هي عبارة عن: الإيمان بالله وبرسوله، وخلوّ القلب من الشك والريب فى ما يرتبط بالإيمان، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله وفي الشطر الأخير جرت الإشارة اِلى الآثار العملية ونتايج الإيمان المحسوسة: (أُولئك هم الصادقون)، حيث يتجلّى إيمانهم الحقيقي بداعي صدقهم.

وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام في تعريف الإيمان: «الإيمانُ ما استقرّ في القلب وأفضى به اِلى الله، وصدّقه العمل بطاعة الله، والتسليم لأمر الله» (الكليني، ١٣٧٥ ش.: ٤٢). هذا في الوقت الذي يجهد غير المؤمنين بالمنّ على الرسول لمجرّد نطقهم بالشهادتين..

لا شكّ أنّ جميع هؤلاء ـ من حيث الظاهر ـ فى جملة أمة محمد صلى الله عليه وآله، ولكنهم لا يستوجبون ـ جميعهم ـ المغفرة الإلهية، وإنّ الفاصلة لعظيمة بين الثرى والثريا وبين ذينك الواقعين وذينك القلبين! فالقلب المفعم بالإيمان والذي لا سبيل للشكّ إليه، والقلب الفارغ من الإيمان، ثم ينتهي اِلى المنّ...

فثمّ فرق هائل بين اِنسان يضحي ويجاهد بماله ونفسه بداعي هذا الإيمان الصادق وبين إنسان يتكسّب باسلامه... ولذا وجدنا الله تعالى قال عن المنافقين: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) [التوبة/ ٨٠]

ويمكن استنتاج أن أُمة النبي في العرف المعاصر للمسلمين ذات معنىً عام يشمل جميع القائلين بالإسلام، وأنّ هناك معنىً خاصّاً لا يصدق اِلّا على المؤمنين الصادقين.

تعريف الشيعة...

كلّماتسعت دائرة الاسلام، أُضيف الى اسم الدين الإسلامي المقدّس عظمة وعزّة ـ هكذا يفترض ـ فيُضاف اِلى جلاله وقوّته الظاهرية... ثم من ناحية أُخرى ينطوي إليه مزيد من الأشخاص غير المخلصين والنفعيين الدائمى تتبّع منافعهم الشخصية والخاصّة، وهذا ما يؤدّي اِلى زيادة المدّعين الكاذبين، فيشاركون ـ اِلى حدٍّ ما ـ المؤمنين الصادقين العيش تحت عنوان (أُمّة النبي) وسقف (الإسلام) ولا ريب في أنّ هذا الواقع منحىً

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

طبيعي لكل مدرسة فكرية وعقائدية في طريقها اِلى التطور وتحظى بالمقبولية، ناهيك عن دين يراد له بسط جناحيه في المعمورة والإشراق بنوره اِلى أبد الدهر ونشر رحمته في جميع عالم الوجود، وذلك أنّ زعيمه ونبيّه اِنّما بُعث رحمة للعالمين (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء/ ١٠٧).

فهذا كلّه بالمعنى العام للكلمة، ويتضمن ـ في الظاهر ـ المسلمين والأمّة المسلمة... ولكن في الحقيقة؛ أيّ الفريقين يعانق الأهداف والغايات النبويّة النبيلة؟ وأيهما يسير ضمن مسار الرشد والتقدم بدين الله؟ وأيهما يرافق النبي ﷺ في مسيره؟ رأي الفريقين يضحي بالغالي والنفيس لإيصال المجتمع إلى المثل النبوية، وبالتالي، أيّها سيحقّق الإرادة النبوية؟!

المؤمنون الصادقون، وبداعي إيمانهم القلبي وتسليمهم العملي ـ في الحقيقة ـ هم مَن تربطهم بالنبي العلاقة الوثيقة بما لاانفكاك فيها، حتى لكأنّهما كتلة واحدة... كتلة عقلها النبيّ الأعظم، وأعضاؤها وجوارحها المؤمنون الصادقون... هذه الجماعة في أُمة النبي هي التي وصفتها الروايات المعصومة بأنّها «الخاصّة الخالصةُ منّا أهل البيت»، وهي من تحسب «شيعة النبيّ». وقد نقل عن عمار بن ياسر رضوان الله عليه أنّ النبي الأعظم ﷺ قال: «إن الشيعة الخاصّة الخالصة منّا أهل البيت». (الكاشاني ١٤٠٦ ق.: ٨٢٤). فهؤلاء هم الأتباع الصادقون للنبي، حيث يتفكّرون لأنفسهم ويوقفونها لإشاعة وبث المبادئ والغايات المحمديّة النبيلة. ولا فرق في أن كان مصطلح الشيعة يطلق على جماعة خاصة في العصر النبوي أم لا... وحتى اِن سلّمنا بكلام محمد حسين فضل الله ونظائره واعتبرنا تشكل الكيان الشيعي أمراً غير مقبول... فإننا لا نستطيع إنكار وجود الأتباع الثابتين الراسخين والصادقين للنبي الأكرم ﷺ في تلك الحقبة.. أولئك الذين طالما خاطبتهم الآيات ووصفتهم بصفة «المؤمنين» وعزلتهم عن «المنافقين» الذين كانوا يقسمون للنبي كذباً بأنهم في المؤمنين به.. ولطالما صرحت سور قرآنية جمّة، مثل سورة المنافقون والتوبة وكذا سورة الفتح بالاعتراض عليهم وعلى منهجيتهم وسلوكهم وأفكارهم، ونددّت بهم تنديداً مباشراً...

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

و«الشيعة» في لغة العرب تعني الأتباع والأصحاب، والجماعة المتفقة على فكرة واحدة ورأي واحد... (ابن منظور، ١٩٨٨ م.: ٢٥٨). ويذهب كاتب الدراسة أيضاً إلى أنه بملاحظة معنى «شاع ويشيع» فانّ (الشيعة) مشتقة من هذا المعنى.. ويمكن القول بأنّ هذا المعنى يشمل على الترويج والإشاعة والنشر للمبادى النبوية أيضاً.

أمّا (الشيعة) من الناحية التأريخية فهو اصطلاح يطلق على القائلين بالتبعية لأمير المؤمنين علي عليه السلام. وعلى أي حال؛ فإن تكوّن الشيعة تحت عنوان الأتباع الحقيقيين للنبي صلى الله عليه وآله منذ حياة رسول الإسلام، وفي ذلك وردت أحاديث ليست بالقليلة. وقد كشف أميرالمؤمنين عليه السلام وبدقة لامتناهيه وبالاستدلال المتين عن اسم الشيعة وصفاتهم. وقد كتب ضمن جوابه على سؤال وجّه إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، فإن الله يقول: (وإن من شيعته لإبراهيم) وهو اسمٌ شرّفه الله في الكتاب، وأنتم شيعة النبي محمد صلى الله عليه وآله كما أنّ محمداً صلى الله عليه وآله من شيعة إبراهيم عليه السلام، اسمٌ غير مختصٍ، وأمرٌ غير مبتدع...». (الكاشاني، د.تا.: ١٢٧).

وفي هذا النصّ الشريف لا يجد الإمام علي عليه السلام لنفسه استقلالاً عن النبي صلوات الله عليه وآله، بل ويرى أنه المتّبع الأول لمحمد صلى الله عليه وآله، وأن طريقه طريقه، وبهذا يشير عليه السلام أن المبادئ الإبراهيميّة هي ذاتها امتداد لخطّ النبي نوح عليه السلام.. وتواصلت إلى العصر المحمدي وتمثلت في شخص خاتم الأنبياء والمرسلين.

فالنبي المصطفى مأمور من قبل الله عزّوجلّ، وطبقاً للآية الشريفة القائلة: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل/ ١٢٣].

بمتابعة ذات الخط وهذا التيار التوحيدي.. وهو التيار الذي لم ينقطع ـ ولا ينبغي له الانقطاع ـ بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تمثّل في الوجود المبارك لأمير المؤمنين عليه السلام... و بهذا؛ يكون التشيع العلوي الأصيل تيار توحيدي أصيل عريق متجذّر، وأن وجوده لم يكن في العصر المحمدي فحسب، وإنما هو ـ على الدوام ـ كان محطّ تأييد الله وايرادته الأصيلة.. والقرآن الكريم قد صرح كبر كلمة واصطلاح (اتّبعوا) في قوله تعالى: (قُلْ صَدَقَ

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [آل عمران/ ٩٥] أمر جميع المؤمنين بالاستقامة والاستمرار على اعتناق التشيع لإبراهيم حتى (يظهره على الدين كلّه).

وفي كتب العامّة الحديثية وغيرها ـ مع التدقيق والملاحظة ـ ثمّ نصوص تدلّل وتثبت وجود (شيعة علي عليه السلام) في زمن النبي صلى الله عليه وآله... ولقد روى ابن حجر العسقلاني في كتابه (الصواعق المحرقة) عن ابن عباس أنه قال: لمّا أنزل الله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة) قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «هم أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوّك غضاباً مقمحين...». (الهيثمي ١٣٨٥ ق.: ١٥٢).

فيما روى الحموييني أيضاً في (فرائد السمطين) بسنده عن جابر قال: «كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فأقبل علي عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله: قد أتاكم أخي، ثم قال عليه السلام: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة».

ومع وفرة وجود هذه النصوص الشريفة في المصادر الحديثية لأهل السنّة وكثرتها في المصادر الروائية الشيعية؛ نخلص إلى حقيقة أن الشيعة لم يكونوا في العصر النبوي فحسب، وإنما هم يجسدون المتابعة والامتداد الحق لتيار التوحيد في الوجود، وقد أمر خاتم الأنبياء بإدامة هذا الخط الإلهي الأصيل في وجود علي عليه السلام وفي وجود أتباعه وشيعته بوضعه التعييني باعتبار عَلماً هادياً.. مع أن وجودهم العلني ـ على المستوى الاجتماعي إذ ذاك ـ كان محطّ تساؤل...

الشيعة وتيار التوحيد المنظّم

يتّضح عبر الرواية المنقولة أعلاه عن مولى الموحدين علي عليه السلام بخصوص الشيعة أنه يعدّ الشيعة والتشيع تياراً توحيدياً متماسكاً قد انطلق منذ القدم، وأنه قد اتّسع وترسّخ ضمن المشروع الالهي الذي كلّف به إبراهيم عليه السلام ثم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله. ولقد وجد هذا التيار العريق عبر التاريخ، وبالنظر إلى المعنى اللغوي للشيعة والتشيّع واستعماله في اللغة القرآنية والنبويّة المحمّديّة منحىً هادفاً مميزاً لغرض تحقيق وتكريس المبادى

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

الالهية والمشروع الرباني المعدّ للبشرية. فصار الأشخاص الذين انضّموا اِلى هذا التيار التوحيدي، وسمّوا شيعةً يضعون أقدامهم على آثار أقدام زعماء هذا التيار ويخطون الخطوة بعد الأخرى مع القيادة الإلهية في تحقيق النظام والمشروع الإلهي هذا، فرافقوا الوحي حتى تحقيق الغايات الربانية المرجوّة... وفي خضم ذلك؛ كان لهم جهادهم العتيد ضدّ أعداء الوحى والتوحيد..

ولقد نهض إبراهيم عليه السلام ـ كما تصرح آيات القرآن المجيد ويُفهم منها ـ بأعباء تحقيق أهداف النبي نوح عليه السلام ، واَبلغ اَباه وقومه الحقّ وواجههم وسعى كلّ سعيه لإعلاء كلمة الله في الأرض، فسمّاه الله شيعياً مع وجود الفواصل الزمنية البعيدة بينه وبين النبي نوح عليه السلام ، بمعنى أنه لم يكن العامل الزمني ليفصل بين الاثنين العظيمين، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ [الصافات/ ٨٣-٨٥].

كما كان محمد صلى الله عليه وآله نفسه شيعة إبراهيم عليه السلام ، حيث تابع هدفه وجاهد أعداءه بما كلّفه الله عزّوجلّ.

ويمكن القول بصراحة: إن الثلة المؤمنة التي سلّمت بقلبها وروحها للتعاليم المحمّدية ولم يكن همّها سوى تحقق الأوامر الإلهية وبقيت قلوب أفرادها سليمة منزّهة عن كل لوث ولم يكن لها شك في الغايات الإلهية.. قد سميت (شيعة).

تحميل النبي ذنب الشيعة وغفرانه

يبدو أن نبي الإسلام العظيم أو أي نبي آخر، بل وأي قائد اجتماعي وأي زعيم لجماعة، له وجود شخصي، وموجودية اجتماعية عامة. فإن قلنا بأن الملك الفلاني أو الرئيس والقائد قد تناول طعاماً أو شرب ماءً، فإننا ننسب فعله هذا إلى شخصه حيث كان المباشر له، ولكننا إذا قلنا: قام القائد فلان بإصلاحات، أو بنى مدرسة ومستشفى وأدار مجمعاً علمياً، فإننا ـ كما هو واضح ـ لا نقصد مباشرته لهذا النوع فى العمل، كان يكون بنى المستشفى بيديه...

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

فهذا ما يُعدّ في البلاغة مَجازاً مع علاقة سببية، لأنه كان مجرد سبب لإيجاد الاصلاحات أو بناء المصروح والمؤسسات.. وهنا نكون قد جعلنا له موجودية اجتماعية تشير إلى أنه أنجز ما أنجز بالاعتماد على مجموعة خاضعة لأوامره منفّذة لمشاريعه ومخططاته.. وأفراد هذه المجموعة لابد أن يكونوا مرتبطين فيما بينهم متوحدين في تعاونهم... ويكفي للقائد هنا أن يريد، لتنهض هذه المجموعة بأعباء مسؤوليتها ضمن تخصّص كل فرد من أفرادها.

وفي هذه الآية ـ محطّ البحث والتحقيق ـ وبالنظر إلى سياق الآيات والمباحث السالفة؛ من قبيل الفتح والانتصار الذي هو انجاز عملي جمعي ويتم تحت مظلّة المواجهات العتيدة من قبل المؤمنين المخلصين وضمن القيادة النبوية للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وكذا إتمام النعمة والهداية إلى الصراط المستقيم الذي تضمنته الآيات التالية لهذه الآية، يعلم أن مخاطب الضمير في قوله تعالى (لك، ذنبك) في جميع هذه الآيات المباركة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح/ ١- ٣] هو الوجود و الموجودية الاجتماعية لنبي الإسلام، وإن مقام النبي في هذه الموجودية مقام الإرادة الحاكمة والقائدة المتنفّذة. وإن هذه الآيات المباركة دليل عظمة وخطر تشكّل نظام دينى في زمن نزول الآيات تحت مظلّة حصول مقدمات مميزة، مثل وجود شخص الرسول، ووجود الاتباع العازمين المسمّين (المؤمنون الخالصون المخلصون) أو (شيعة النبيّ) وخصوصاً بيعتهم مع النبي تحت الشجرة كما سميت ببيعة الرضوان، وبلوغ الكمّيّة والكيفية فيهما حدّ النصاب، ووحدتهم واتّحادهم مع الإرادة النبويّة. إن هذه النظرة مع الأخذ بالحسبان المعنى اللغوي والاصطلاحي للشيعة والتشيع، يتكرس ويقوى نظام هذه المجموعة في تلك الحقبة الزمنية...

لقد كان النبي قبل ذلك موظفاً بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر/ ٥٥] أن يستغفر بعنوانه الرسول الحامل للرسالة ومبلّغها ليفتح طريقاً في قلوب الناس ليتقبّلوا دعوته وتتغيّر نظرتهم إليه، وتغفر أعماله التي كانت بأعين الناس ذنباً... وبعد ذلك وكلّف صلوات الله عليه وآله بنزول الآية المباركة القائلة:

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد/ ١٩]. ولهذه الغاية كلّف صلوات الله عليه وآله أن يستغفر للمؤمنين، ويبدو أنه عند نزول سورة الفتح وإعلان الانتصار والفرج، قد حان موعد استجابة استغفار النبيّ.. إذ ثمّ الاعتراف بالإسلام في جزيرة العرب بشكل رسمي. وهيّئت الأرضية لانتشار الإسلام كما لم ينتشر من قبل.. وفي جهة أخرى؛ قد وجد الدين كيانه الرصين وتحقّق نظامه الإيماني..

ويتشكل الإسلام بعنوانه مجموعة منظمة، يمكن القول إنه بعد ذلك سيتوقّع له مصير جمعي، فإذا أردنا الاستعانة بالقوانين العلمية الدالّة على الوحدة والنظام والسارية في الطبيعة. فثَمّ نماذج نجدها. وهنا نذكر نموذجاً واحداً لذلك، أي: نشير إلى الظروف المرتبطة.

فالماء الكائن في أوعية متصلة فيما بينها له من السبلان إذا ما سقطت قطرة واحدة في وعاء من الأوعية فإنها ستؤثر في كمية الماء المتوفر في سائر الأوعية. وحيث أن الإنسان مركّب من نور وظلمة، فإن الشيعة بطبيعة الحال وباعتبار الظلمة المتوفّرة في طبيعة ظرفهم المادّي (وإن كانت قليلة) فإنّ كل شيعي فيه الاستعداد والقابلية على ارتكاب المعصية على الدوام رغم جهاده النفسي في إطار سعيه إلى تحقيق الغايات المحمدية والعلوية.. وثمّ احتمال صدور الخطأ والزلل منه.. وحيث أن هدف الفرد الشيعي ـ المرضيّ من قبل النبي والإمام ـ قد امتزج بالهدف النبوي، وأوقف حياته على الرسالة المحمدية، ورغم تضحيته المتواصلة بحاله ونفسه.. صار نوع اتصال بين وعاء وجوده مع الأوعية الأخرى التي يسري الإيمان فيها جمعياً، بحيث أن أصغر ذنب يمكن أن يرتكبه الفرد الشيعي يقلّل من إيمانه ويترك أثره على جميع الشيعة وعلى الأئمة الأطهار عليهم السلام وعلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً.. ولمّا كان النبي يجسد أكبر أوعية الإيمان وأوسعها، فإنه يحمّل تبعة ذلك الذنب الصادر عن فرد من أفراد شيعته.. كما أن المغفرة والرحمة النازلة من قبل الله تعالى على الوعاء النبوي الطاهر لها تأثيرها على سائر الأوعية المتّصلة لتغشّى هي أيضاً بالمغفرة والرحمة...

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

إن الآيات والأحاديث الكثيرة الناطقة بوحدة واتّحاد أفراد هذه المجموعة الإيمانية الخاصّة فيما بينها وبين نبيها الأكرم تشير إلى هذه الحقيقة العظمية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠] وهذه الآية احدى الآيات الواردة في إيضاح وتكريس هذه المطالب الفذّة. ولقد مثّل أهل البيت عليهم السلام المؤمنين بأعضاء الجسد الواحد الذي إذا اشتكى عضو واحد منها الحمّى ـ مثلاً ـ اشتكت لذلك سائر الأعضاء.. كما مثّلهم الإمام الصادق عليه السلام المؤمنين بالإخوة ضمن الأسرة الواحدة ومن أب وأم: «إنما المؤمنون إخوة، بنو أب وأم، إذا ضُرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون» (الكليني ١٣٧٥ ش.: ٢٤١). وفي رواية أُخرى مثّل المؤمنين بالجسد الواحد متصلة جميع أعضائه بروح الله، فإذا تألم عضو واحد اشترك معه سائر الأجساد في الألم: «كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى شيئاً منه؛ وجد الم ذلك في سائر جسده. وأرواحهما من روح واحدة.. وإن المؤمن لأشدّ اتصالاً بروح الله من اتّصال شعاع الشمس بها» (الكليني ١٣٧٥ ش.: ٢٤٢). فالضرر الذي يصيب أحدهم يُعدّ ضرراً لأخيه، وكذا النفع الذي يطال أحدهم يُعدّ نفعاً لإخوانه.. وهكذا الثواب الذي يفرح له الجميع، وكذا العقاب؛ يثقل على الجميع.

قال جابر الجعفي: تقبّضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام، فقلت: جعلت فداك! حزنت فى غير مصيبة تصيبني أو أمرٍ ينزل بي؛ حتى يعرف ذلك أَهلي في وجهي وصديقي. فقال: «نعم يا جابر، إن الله عزّوجلّ خلق المؤمن من طينة الجنان، فأجرى فيه من ريح روحه، فلذلك: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، فإذا أَصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن، وحزنت هذه لأنّها منه» (الكليني ١٣٧٥ ش.: ٢٤١).

ولهذا كان الوعد بمغفرة ذنب النبي الوارد في أول سورة الفتح ليس لذنب شخص النبي المعصوم الذي لا يصدر عنه الذنب أساساً، وإنما هو وعد بمغفرة ذنوب هذه المجموعة والجسد الديني التي كان لأفرادها دور في هذا الفتح أو الفتوحات... لا سيما وأن وجود (اللّام) في: (ليغفر) يشير إلى أن المغفرة ستتبع الفتح وذات علاقة وطيدة ومباشرة به.. وطبيعي أن الفتح لا يتحقق من دون الطاقات الإنسانية المؤمنة...

وبهذه القرائة الجديدة ـ الأصيلة في دين أهل البيت عليهم السلام ـ لآية المغفرة، يتحصّل

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

الخروج عن إشكال (ذنب النبي) بلا تأويل، ويكون حمل ذنوب أمة النبي الخالصة، او المعروفة بالشيعة.. واليوم ينبغي القول بأنّهم الشيعة الخالصون على الوجود المبارك للنبي محمد صلى الله عليه وآله ثم غفرانها، وذلك ضمن المسار المعقول والمنطقي.. وكذا قول العلامة الطباطبائي في العلاقة بين الفتح والذنب حيث اعتبره هذا الأخير إشكالاً لا ينحل، وصرح: «لكن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله» (الطباطبائي ١٩٧٣ م.: ٢٥٦)، فيحلّ بهذه الحيثية، لاَن الفتح صار فى خط جميع المؤمنين، أي: المجموعة التوحيدية المتآلفة التي شملها الله بالمغفرة جميعاً.

وأما بخصوص محمد حسين فضل الله، فينبغي القول إنه ردّ هذا الحديث بلا أدنى تأمّل، وهي من الأحاديث القيمّة للغاية.. في الوقت الذي بين عبرها الإمام الصادق عليه السلام أحد المفاهيم القرآنية الوسيعة وذات العلاقة بالارتباط بين الفتح وجهاد المؤمنين في الحروب.

ويبقى أن تفسير الإمام الرضا عليه السلام القائم على أساس ذنب النبي من خلال رؤية المشركين، في هذه القرائة الجديدة اَمراً مقبولاً تماماً. وذلك لصدق هذا النوع من المغفرة للنبي والأُمة.

وها نحن الآن نلقي نظرةً على مطالب ونقاط مرتبطة بهذه القرائة في جميع سورة الفتح..

١- إذا ما ألقينا نظرة جديدة على مجموع آيات سورة الفتح المباركة يتبيّن جيداً أن تمحور السورة على تشكّل المجتمع الديني سينتهي الى التجلّي لمصطلحات ومفاهيم قرآنية فذّة، مثل: النصرة الإلهية: (وينصرك الله) ونزول السكينة على قلوب المؤمنين: (أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) ومضاعفة وتكريس الإيمان في المؤمنين: (ليزداد الذين آمنوا إيماناً) ومحق الذنوب؛ وهو الغفران: (ويكفّر عنهم) والتشجيع على مبايعة النبي صلى الله عليه وآله: (إنّ الذين يبايعونك اِنما يبايعون الله) ثم اِقامة مراسم بيعة الرضوان تحت الشجرة: (لقد رضي الله عن المؤمنين اِذ يبايعونك تحت الشجرة) والتأكيد على دور الرجال والنساء في تحقّق الانتصار: (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) والزام المؤمنين

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

بكلمة التقوى: (وألزمهم كلمة التقوى) والتأكيد على الغاية الكبرى والنهائية من البعثة النبوية واتّساع رفعة الدين وغلبة على جميع الأديان: (ليظهره على الدين كلّه).

٢- اَن السعي المتواصل نحو الفصل بين المؤمنين والمشركين والمنافقين والمخلّفين يمنح الاستقلال ويصنع القوة للكتلة الإيمانية في هذه الآية يمثّل دلائل أُخرى على صحة هذه النظرة الجديدة. فحينما تكون الكتلة الإيمانية (جماعة المؤمنين) مستقلة، ويتم تحديد تعريف مستقل في مواجهة أنظمة الشرك وكيان النفاق، فإنه بذلك سترسم ملامح مصير المشركين والمنافقين أيضاً.. ولذا فقد وجدنا الله تعالى في هذه السورة العظيمة يحدد المصير النهائي للمؤمنين والمشركين والمنافقين وبشكل كامل، وذلك في قوله الجليل: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح/ ٥]. و: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح/ ٦].

٣- فى المسائل اللطيفة جداً والتي تضمّنتها هذه السورة، وجود الآية القائلة: (ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) ثم قوله تعالى مباشرةً: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخّر) اِن مغفرة الذنب ـ بالقراءة الجديدة ـ تتم بالحمل على تشكّل النظام الوحداني بين الأتباع الخالصين للنبي والاعتراف به، وبالنتيجة تتأتى المغفرة لجميع أفراد هذه المجموعة التوحيدية؛ ذلك بتجلّي إتمام النعمة.. و إتمام النعمة هنا توحي باتمام النعمة و إكمال الدين المذكورين في الآية الثالثة فى سورة المائدة حيث قال تعالى: (اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً) وبالنظر اِلى أن آية اِكمال الدين قصدت ولاية علي عليه السلام في يوم الغدير الأجلّ، فإن المعنى يتكامل مع الحديث عن هداية النبي اِلى الصراط المستقيم الوارد ذكره في سورة الفتح، حيث الإشارة اِلى جريان النبوّة في نهر الولاية العلوية وتداوم ذلك في الإمامة العلوية، والّا فما معنى هداية الرسول اِلى صراط مستقيم بعد سنيّ البعثة وأخريات عمره الشريف صلى الله عليه وآله؟ اِلّا في تداوم هذا الجريان التوحيدي بعد انتهاء عصر النبوة ـ أي: انتهاء مرحلة التنزيل ـ والتذكير بحياة الكيانى الإيماني بعد رحلة النبي، لتتجلّى مرحلة التأويل.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

٤- الآية الأخيرة من سورة الفتح:

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الفتح/ ٢٩].

وهذه الآية عجيبة جداً ومباركة للغاية، وهي تمضي وتؤيّد النظره الواعية للكيان النبوي ومجموعة المؤمنين المحدّدة والمنظمة.

فالآية خاطبت محمداً ﷺ على أنه رسول الله، وليس باعتباره شخصاً غير موصوف بصفة .. ثم المؤمنون بالرسالة المحمدية يرافقونه بالموقف والتصوّر.. والمعية هنا لا تشير إلى المرافقة...

ثم تناولت الآية إحصاء أوصاف المؤمنين وخصائصهم في المقاومة والعاطفة والأخلاق والعبادة والمعنوية.. وأخيراً؛ تشبيهم بشجرة مثمرة على الدوام وتتجذّر باستمرار وتنمو أبداً.. وأخيراً تختتم الآية مسارها بالاستفادة ممّا كان من علاقة بين المغفرة الوارد ذكرها في أول السورة للنبي والمؤمنين في آخر السورة، حيث تنتهي بتناول الأجر العظيم للمؤمنين..

النتيجة

مما تقدم من قراءة جديدة في آية مغفرة الذنب المنسوب إلى النبي.. يتأتى الخروج من إشكال تحميل ذنوب الشيعي للنبي مع حفظ حرمة العصمة للنبي العظيم، وبلا تأويل... وإن حمل ذنوب الأمة الخالصة، أو (الشيعة) على الوجود المحمدي المبارك يُعد أمراً معقولاً ومقبولاً من الناحية الأدبية والعرفية.. كما أن طبيعة العلاقة بين الفتح والذنب حيث بقيت بمثابة إشكال غير قابل للحلّ لدى العلامة الطباطبائي ومفسرين آخرين لدى حمل المغفرة على المغفرة لأُمة النبي.. ستُحل عبر هذه النظرة والقرائة الجديدة.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]

ومن وجهة نظر كاتب هذه الدراسة، فإن أياً أحاديث الأئمة الاطهار الخاصة بتفسير (ذنب النبي) غير مردودة، بل اِنها جميعاً واضحة ويثبت كل منها صحته في موضعه. ورغم ما يبدو من تفاوت ظاهري بين تفسيري الإمام الصادق والإمام الرضا عليهما السلام، ولكن بالنظر اِلى مخاطَبَيهما والحيثية الخاصّة التي نطق كلٌّ بها، وبملاحظة أُفقي البيان، فإن ذلك كلّه يعرب عن المفاهيم القرآنية الواسعة والعميقة. وهذه القراءة الجديدة يمكن أن تكون مفيدة جداً لدى تفسير وتبيين الكثير من الآيات والحقائق القرآنية الرائعة..

فهرس المصادر

القرآن الكريم.

– لسان العرب لابن منظور، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

– الصواعق المحرقة لابن حجر. القاهرة، شركة الطباعة الفنية المتحدة.

– الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي، بيروت، مؤسسة الأعلمي.

– الاحتجاج، للطبرسي. مشهد المقدسة، مطبعة سعيد، نشر المرتضى.

– مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، بيروت، دار المعرفة.

– مقالة (تحقيق كلامى) للطيب الحسيني.

– من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، بيروت، دارالملاك.

– النوادر في جمع الأحاديث، للكاشاني، محمد بن مرتضى، طهران، مكتبة شمس.

– الوافي، للكاشاني، اصفهان، مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام.

– أُصول الكافي، للكليني، طهران، انتشارات ولي العصر.

– بحارالأنوار، للمجلسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

– (مطالعات تطبيقي قرآن و حديث) فارسي ـ المقدسى محمد بشير وعلوي مهر.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-05-17]